مرآة الذاكرة بين الفلسفة والأدب

(دراسة تحليلية نقدية مقارنة)

د. ناهد إبراهيم محمد محمد

مدرس الفلسفة اليونانية

كلية التربية - جامعة الإسكندرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة:

إن المهمة الرئيسة للفلسفة هي التحليل والنقد؛ فالفيلسوف، أو قارئ الفلسفة بشكل عام، يهتم، بصورة أساسية، بتحليل طبيعة الفكر، ومدي الاتساق بين الأفكار، والعلاقة بينها وبين الواقع، ومن ثم، يبدي اهتماماً، كبيراً، بأية وسيلة يستخدمها الناس لاكتساب القدرة علي التحليل؛ فقارئ الفلسفة يبحث، دائماً، عن أفضل الطرق للوصول لفهم فلسفي سليم.

وكثيراً ما كان الأدب - علي اختلاف أنواعه - وسيلة لقراءة البحوث الفلسفية؛ فهو تحرير للفلسفة من الخضوع - في كثير من الأحيان - للمصطلحات الجامدة، والقوالب الصعبة، بحيث يصبح وسيلة للتأمل اللاإرادي للفلسفة؛ فهو إعادة إنتاج للأفكار الفلسفية؛ ولكن في صورة قريبة إلي متناول القارئ العادي دون إسراف في رطانة الفلسفة المتخصصة، وهو الإسلوب الذي لجأ إليه كثير من الفلاسفة والمفكرين علي مدار عصور الفكر، مثل: أفلاطون، وشوبنهاور، ونيتشه، وكامي، وهايدجر، وسارتر، وسيمون دي بوفوار، وغيرهم .

الهدف من الدراسة :

يكمن الهدف من البحث في التأكيد علي فكرة التواصل الفكري بين الحضارات من ناحية، والفلسفة والأدب من ناحية أخري؛ فالبحث في مفهوم الذاكرة يمتد بجذوره إلي الفكر اليوناني القديم، لاسيما عند أفلاطون، وأرسطو، وأبيقور، وصولاً إلي الفكر الفلسفي المعاصر، خاصة عند نيتشه، وبرجسون، وسارتر، إلا أن طبيعة موضوع البحث؛ قد دفعتني للجمع بين الفلسفة والأدب؛ كوسيلة لقراءة مفهوم الذاكرة بصورة فلسفية، تجمع بين الإيجاز والعمق في الوقت نفسه.

إشكالية الدراسة :

تكمن إشكالية الدراسة في محاولة البحث في مفهوم الذاكرة (من حيث كونها مرآة تعكس الماضي، وتنعكس علي الحاضر، وتؤثر في المستقبل) والمقارنة بين المفاهيم المختلفة التي اكتسبها، من خلال تطوره عبر الأزمنة التاريخية الفلسفية، بداية من الفلسفة اليونانية، وصولاً إلي الفكر الفلسفي المعاصر.

أما عن تساؤلات الدراسة، فيمكن عرضها علي النحو التالي :

١- هل الماضي يموت حقا؟ أم أنه يتابع حياته، عبر الذاكرة، في وعينا ؟ فينعكس الماضي، بكل ما فيه، من أفراح، وأتراح، علي حاضر الإنسان، ومستقبله ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- هل يمكن أن نتذكر شيئاً لم نعشه من قبل؟ شيئاً حدث قبل ميلادنا ولم نراه ؟ وكيف أجاب أفلاطون عن هذا السؤال ؟

٣- ما مفهوم الذاكرة عند أرسطو ؟ وكيف أصبح الماضي عنده مرئياً وغابراً في الوقت نفسه ؟

٤- كيف تُلقي الذاكرة بظلالها علي المستقبل ؟

٥- ما مفهوم النسيان عند أبيقور ؟

٦- ما الفارق بين كل من : المستقبل الحي، والمستقبل المُتخيل عن سارتر ؟

٧- كيف تصبح الذكري حضوراً للغائب ؟ وهل هناك ما يسمي (بالديمومة) كما قال برجسون؟ أم أن وجودنا مكون من حالات منفصلة، نصبح، في كل آن منها، (ذاتاً) محايدة ؟

وفيما يتعلق بالمنهج المستخدم في تلك الدراسة، فهو المنهج التاريخي التحليلي المقارن النقدي، ولاشك أنه يستقيم تماماً مع موضوع الدراسة :

تاريخي : حيث الوقوف علي الأصول التاريخية لمفهوم الذاكرة .

تحليلي : حيث تحليل النصوص الفلسفية لمختلف الآراء التي قيلت حول مفهوم الذاكرة .

مقارن : حيث الوقوف علي أوجه الاختلاف القائمة بين المذاهب الفلسفية المختلفة حول مفهوم الذاكرة .

نقدي : حيث بيان وجهة نظر الباحثة كلما اقتضي الأمر ذلك .

أما عن أهم الدراسات السابقة التي ناقشت مفهوم الذاكرة، فيمكن الإشارة إليها - علي سبيل المثال لا الحصر - علي النحو التالي :

أولاً / الدراسات الأجنبية المترجمة :

١- ورنوك . ميري : الذاكرة في الفلسفة والأدب، ترجمة : فلاح رحيم ، ٢٠٠٧ .

٢- بوتي . لوبون : الذاكرة أسرارها وآلياتها ، ترجمة : عز الدين الخطابي ، ٢٠١٢.

ثانياً / الدراسات الأجنبية :

1- Marder.(M) : History, Memory, and Forgetting in Nietzsche and Derrida (Paper), University of the Basque Country, Spain, 2004 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2- Hoerl.(Ch) : Episodic Memory, Autobiographical Memory, Narrative: On Three Key Notions in Current Approaches to Memory Development (Article) , published in Philosophical Psychology 20 , 2007 .
3- Roberto.M : Aristotle's On Memory and Recollection: Concepts, Sources, and Innovations of Aristotle's Account of Mnemonic Capacities and Activities , A thesis submitted to the Department of Classics and Ancient History Durham University, 2009 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمهيد :

يقول **جبران خليل جبران** في مؤلفه الشهير (رمل و زبد) : " **الذكري صورة من صور اللقاء، والنسيان صورة من صور الحرية** " [١] .

فالإنسان يحمل في داخله مرآة، لا تقل صقلاً ونصوعاً عن تلك المرآة الزجاجية التي يري فيها وجهه كل صباح؛ فهي تعكس إليه أفعاله وحماقاته التي ارتكبها، والتي يود لو أنها مرت سريعاً دون أن يلتقي بها مرة أخري، ولكن ها هو يراها ثانيةً [٢] تسطع - علي الرغم منه - في مرآة الذاكرة .

فإذا كان الانعكاس هو الفعل الأساسي للمرآة (والتي اختلفت أنواعها؛ ما بين المرآة الزجاجية تارة، وصفحة المياه تارة أخري، فضلاً عن عيون الناس، ونظرة المجتمع للإنسان) فإن الذاكرة أيضاً تعد مرآةً، مثلها كمثل سائر المرايا؛ تعكس ما مر به الإنسان في حياته من أحداث ومواقف؛ فهي مرآة تحيا بداخلنا، قادرة علي استحضار الماضي في صورته البعيدة .

فالذاكرة، كما أوضحت الفيلسوفة الإنجليزية المعاصرة **ميري ورنوك** Warnock.M (١٩٢٤ - ؟) في مؤلفها (الذاكرة في الفلسفة والأدب)، موضوع هام أُثير لدي الفلاسفة، وتم الربط بينه وبين الهُوية الشخصية، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء أيضاً؛ فقد شغل التجريبيون أنفسهم منذ القرن السابع عشر، ومابعده، بدراسة تجربة التذكر، فما مكونات هذه التجربة ؟ وكيف نستخلص منها المعرفة ؟ وقد قدم كل من هوبز، وجون لوك، وديفيد هيوم، وبرتراند رسل الكثير من النظريات الفلسفية في هذا المجال [٣] فلقد استطاعت ربة

1- جبران خليل جبران : رمل وزبد ، ترجمة : أنطونيوس بشير ، دار العرب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٦ ، ص٢٨.

2- يحيي هويدي : نحو الواقع (مقالات فلسفية) ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٤١٥ .

3- ورنوك . ميري : الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ترجمة : فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ٢٠٠٧ ، ص ٣٦ .

(*) حاكمة تلال إلوثر Eleuther، ووالدة (الموسيات) Muses ربات الفنون والأدب عند الإغريق من كبير الآلهة زيوس Zeus، وكان مقرهن الأصلي جبل يسمي بييريا Pieria بجوار جبل الأوليمب، أعلي جبال اليونان، علي الحدود الفاصلة بين مكدونيا وتساليا، وتغطي الثلوج قمته معظم السنة - أو جبل يسمي هيليكون في إقليم بويوتيا، من هنا كن يُسمين (ساكنات الهيليكون) وكن تسعاً في العدد، وكل واحدة منهن ترتبط بفرع من فروع الأدب أو الفن .

- Hesiod : Theology and Works and Days , Translated by : Nelson.(S) and GladWell.(R) , Focus Publishing / R. Pullins Company , U.S.A , 2009 , P.23 .

- اللائرسي . ديوجينس : حياة مشاهير الفلاسفة ، المجلد الأول ، ترجمة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام ، راجعه علي الأصل اليوناني : محمد حمدي إبراهيم ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٣١٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذاكرة القديمة **منيموســيني** Mnemosyne [*] في الأساطير اليونانية القديمة أن تعــرف أسرار المعرفة والجمال؛ ومن ثم، فقد كُشفت أمامها الأوجه الثلاثة للزمن، في حاضر دائم؛ فعرفت كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون[١] فإذا كان الزمن هو الأكثر حكمة - كمــا قال طاليس - لأنه يكشف عن جميع الأمور[٢] فإن الذاكرة هي مرآة الزمن التي لا تعكس الماضي فقط؛ بل تنعكس صورتها علي الحاضر والمستقبل أيضاً!

أولاً / الذاكرة بوصفها مرآة للزمن :

يميل كل من الحس الفطري والفلسفي إلي وصف عملية التذكر بأنها صور؛ فالذكري التي نمتلكها الآن مرتبطة، بصورة أو بأخري، بالماضي البعيد؛ فكثيراً ما نقول : " أستطيع أن أري ما حدث وكأنه يحدث الآن " أو نقول : " أستطيع أن أسمع الضوضاء التي صدرت حتي الآن " وكأننا نمر بما حدث مرة أخري، ونحيا (الآن) في حاضرنا، ما عــشناه مــن قبل[٣] فالحضور الذي يشكل قوام تمثيل الماضي يبدو أنه حضور الصورة؛ فنحن نقول، بلا تمييز، بأننا نتمثل حدثاً ماضياً، أو نتصوره، أي أننا عندنا صورة، وهذه الصورة يمكن أن تكون شبه سمعية أو بصرية، فالذاكرة، هنا، تعد وسيلتنا لبلوغ الماضي مرة أخري[٤] فالأمر كما يقول دانتي في الأنشودة الأولي من (الكوميديا الإلهية)[٥] :

" آه، ما أصعب وصف هذه الغابة الموحشة، الكثيفة القاسية،
التي تُجدد ذكراها ليّ الخوف " .

أو كما يقول في (الحياة الجديدة)[٦] :

" مراراً تعود بي الذاكرة إلي الأوضاع الغائمة ...
حتي صرت أغلب الأحيان
أقول : واحسرتي !
هل يحدث هذا لغيري ؟ "

1- بوتي. لورون : الذاكرة أسرارها وآلياتها ، ترجمة : عز الدين الخطابي ، دار كلمة ، أبو ظبي ، ٢٠١٢ ، ص١٣ .
2- اللآئرسي . ديوجينس، حياة مشاهير الفلاسفة ، المجلد الأول، ص ٥٥ .
3- ورنوك . ميري ، مصدر سابق ، ص ٢٩ .
4- ريكور. بول : الذاكرة ، التاريخ ، النسيان ، تحقيق وترجمة : جورج زيناتي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ص ٣٣ / ٣٤ .
5- دانتي : الكوميديا الإلهية (الجحيم) ، ترجمة : حسن عثمان ، دار المعــارف ، القــاهرة ، ط٣ ، ١٩٥٥ ، ص٨٢ .
6- دانتي : الحياة الجديدة ، ترجمة : محمد بن صلاح ، دار كلمة ، أبو ظبي ، ٢٠٠٩ ، ص ص ٥٠ / ٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعلي الرغم من أن ما حدث، قد حدث منذ وقت طويل، إلا أن دانتي لايزال يتذكره، ويستحضره أمامه، وكأن الماضي يتجسد مرة أخري في واقعه الحالي، إلي الدرجة التي تجعله يتساءل : هل تحدث هذه الأحداث لإنسان غيره الآن ؟ علي الرغم من أنها أحداث ماضية منتهية منذ زمن بعيد !

ولكن، هل يمكن أن نتذكر شيئاً لم نعشه من قبل ؟ شئ حدث قبل ميلادنا ولم نراه ؟ أو بعبارة أخري : كيف يمكننا معرفة الأفكار التي لم نقابلها إطلاقاً ؟

لقد حل **أفلاطون** هذا اللغز حين أجاب عن تساؤل هام، طرحه علي لسان سقراط، في محاورته **ثياتيتوس،** فتساءل : " **إذا علم الإنسان موضوعاً ما، وكان موجوداً في ذاكرته، فهل يمكن ألا يعلم هذا الشخص الموضوع الذي يتذكره، أثناء عمليه تذكره له ؟** " أو بعبارة أخري : هل يعلم المرء الموضوع الذي سبق له تعلمه في الوقت الذي يتذكره فيه ؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل بأن الذاكرة لابد أن تكون عن شئ، لا " **عن لا شئ** " فالمرء يتذكر ما قد رآه[١] فلقد افترض أفلاطون بأن ذهننا قد عرف الأفكار والحقائق العامة في الحياة السابقة، قبل الميلاد، واحتفظ بها في ذاكرته، مستترة في الروح؛ ولهذا فنحن لا نحتاج الحياة الحاضرة لأن نتعرف علي الأفكار، يكفينا فقط أن نتذكرها، فالمعرفة الفطرية ما هي إلا (**ذكريات**) Reminiscence ؛ ونحن لم نتعلم شيئاً آخر دونها؛ ومن ثم، فإن المعرفة مستقلة عن التجربة الحاضرة؛ فهي معرفة قبلية مأخوذة من تجربتنا في الحياة السابقة[٢] . فالأمر كما قال الشاعر البرتغالي الشهير **فيرناندو بيسوا** (Pessoa.Fت/ ١٩٣٥) في (كتاب اللاطمأنينة)[٣]:

1- أفلاطون : محاورة ثياتيتوس (أو عن العلم) ، ترجمة وتقديم : أميرة حلمي مطر ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٥٨ .

2- Heinaman .R : Plato :Metaphysics and Epistemology , Published in : Routledge History of Philosophy , V.1 (From the Beginning to Plato) , Edited by : Taylor.C.C , Routledge , London and NewYork , 2005 , P. 345 .

- Hegel.G.W.F : The Philosophy of Plato , The Journal of Speculative Philosophy, Vol. 4, No. 3 , 1870 , Published by : Penn State University Press , P. 253 .

- أيضاً : تاتاركيفيتش . فوادسواف : الفلسفة اليونانية ، كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص ص ١٧٥/ ١٧٦ .

3- بيسوا . فيرناندو : كتاب اللاطمأنينة : ترجمة : المهدي أخريف ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط٢، ٢٠٠٨ ، ص ٣٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" **مفكراً أغرق في الهذيان، موقناً بأن ما أكتبه الآن قد كتبته، بالفعل، من قبل، أتذكر ذلك. وأسأل هذا الموجود المزهو : في أين يوجد، إن لم يكن في أفلاطونية الأحاسيس، ذاكرة أخري، ذكري أخري، من حياة سابقة تنتمي، بالكاد، إلي هذه الحياة؟**".

فكل معرفة عند أفلاطون، إنما ترجع إلي ذكريات تحفظها النفس بما سبق أن شاهدته أثناء وجودها في العالم المعقول، وقبل أن تحل في البدن[١] .

ومن ثم، فإن التذكر بالنسبة لأفلاطون هو الأساس الأول للمعرفة، ومن شروطه مثول المحسوس أمام الحس " **حينما يكون التذكر قد انبعث من شبيه الشئ** " فتتذكر النفس شبيهه الذي شاهدته يوماً ما، حين كانت في عالم المثل، وهي الفكرة ذاتها التي وردت عند **سقراط**، والتي عُرفت بطريقة (التوليد)؛ أثناء حواره مع عبد صغير لم يدرس الهندسة من قبل؛ فجميع المعارف والعلوم متضمنة في النفس كوجود فطري سابق[٢].

فالحكم علي الأشياء يبدأ من الإحساس والذاكرة ، فكل منهما ينقش علي الروح خبراته المختلفة، من تجارب حسية، وانفعالات نفسية، تنعكس كلها بعد ذلك في صورة ممارسات عملية يقوم بها الإنسان في حياته، كالحرف اليدوية، أو تعلم الموسيقي، أو ممارسة الطب، وغيرها من الممارسات المختلفة[٣].

فما المعرفة إلا تذكراً " **لما طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال...وما العلم إلا تذكر وكفي**" ومن ثم، فإن النسيان ما هو إلا فقدان المعرفة لا أكثر، ولا أقل[٤].

إلا أن **أرسطو** لم يحصر الذاكرة في مجال المعرفة فحسب؛ بل حاول في مؤلفه **(حول الذاكرة وذكريات الماضي)** On Memory and Reminiscence حل مفارقة البقاء الغامض للماضي لدينا، مما يجعله مرئياً ومحسوساً وكأنه حاضر، مع كونه غابراً في الوقت نفسه[٥] فعلي الرغم من أن الذاكرة عند أرسطو قائمة علي المخيلة، إلا أن

1- محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ج١ (الفلسفة اليونانية من طاليس إلي أفلاطون) ، دار الجامعات المصرية ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٣ ، ص ١٨٩ .

2- حربي عباس عطيتو : ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ص ٤٠٣/٤٠٢ .

- أيضاً : أفلاطون : محاورة فيدون (ضمن كتاب محاورات أفلاطون) ، ترجمة : زكي نجيب محمود ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص ١٤٥ .

3- Demos.R : The Philosophy of Plato , Charles Scribner's Sons , NewYork , 1939 , P.277 .

4- أفلاطون ، محاورة فيدون ، ص ١٤٥ - ١٤٩

5- بوتي . لورون ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المخلية تقتصر علي إدراك الصور؛ بينما الذاكرة تدرك أن هذه الصورة هي صورة شئ قد سبق إدراكه بالفعل[١] فالإنسان لا يمكنه أن يتذكر كلاً من الحاضر أو المستقبل ، بل الماضي فقط[٢].

ومن ثم، فإن الذاكرة عند أرسطو بمثابة (الخزانة) التي نحفظ بداخلها انطباعتنا الحسية ، والتي تُستدعي إلي الحاضر، حين نشاهد شيئاً ما يُذكرنا بالماضي، وكأن تلك الانطباعات قد تركت فوق أرواحنا أثراً كالشمع، لا يُمحي بمرور الزمن، بل يعود مرة أخري في حاضرنا، ويندمج مع تصوراتنا وإحساساتنا الحالية؛ فيندمج الماضي مع الحاضر في وحدة واحدة[٣].

فالتذكر، تبعاً لأرسطو، يتضمن الجمع والمشاركة بين أكثر من صورة بأكثر من طريقة، فالصورة القديمة قد خُزنت في الإحساس من ناحية، وهناك الشبيه الحالي من ناحية أخري (الذي يرتبط بالصورة الماضية بطريقة ما، والذي يقودنا نحو التذكر) ويتم الربط بين الصورتين (فإذا أراد الإنسان أن يتذكر أين ترك شيئاً ما، فعليه تتبع الأحداث الماضية، حتي يصل إلي ذاكرة متي ترك هذا الشئ من يده، وأين تركه) بحيث يتم الانتقال ذهنياً من نقطة إلي أخري، أو من زمن إلي آخر[٤].

فلابد من انقضاء زمن ما بين الحدث الماضي، والذكري الحالية، وهذا الزمن هو الذي يسمح للوعي بالقيام بعملية التذكر نفسها، وتشكيل مسارها[٥] فكل شئ يسير وفقا

1- محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، الجزء الثاني (أرسطو والمدارس المتأخرة) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٤ .

2- Aristotle : On Memory and Reminiscence , Edited with An Introduction by : Mckeon.(R) , Random House , NewYork , 1941 , P. 1 .

3- Scheiter.M Krisanna : Images, Appearances, and Phantasia in Aristotle (Paper) , Department of Philosophy, University of Pennsylvania , 2012 , P,P.268,270 .

- أيضاً : عبد الوهاب جعفر : مبادئ الفلسفة وقضاياها المعاصرة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، ٢٠١٢ ، ص ١٥١ .

4- Scheiter.M Krisanna , Images, Appearances, and Phantasia in Aristotle , P. 270 .

- Zakia.Evan : General Pattern of Aristotle’s Method of Remembering and Memorization as it is Outlined in De Memoria Et Reminiscentia (Paper) , The University of North Carolina , 2012 , P. 1 .

5- Roberto.M : Aristotle's On Memory and Recollection: Concepts, Sources, and Innovations of Aristotle's Account of Mnemonic Capacities and Activities , A thesis submitted to the Department of Classics and Ancient History Durham University , 2009 , P. 15 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للتداعيات؛ فكل ذكري تستدعي الأخري، وصورة شئ ما تجذب إليها صورة أخري، وذلك عندما تقوم بين الطرفين علاقة تشابه، أو تعارض، أو تجاور[١].

إلا أن الذاكرة لا تُلقي بظلالها علي الحاضر فقط؛ بل علي **المستقبل** أيضاً؛ مثل الإحساس **(بالندم)**؛ وهو في ظني أثر لا يُمحي بمرور الزمن كسائر الإحساسات؛ فعلي الرغم من أن هناك الكثير من الإحساسات التي من الممكن الاستشهاد بها فيما يتعلق بانعكاس الذاكرة علي المستقبل (مثل الشعور بالسعادة ، أو الحزن)؛ إلا أنني فضلت اختيار الشعور بالندم، لأنني أراه أكثر الإحساسات أرقاً وإرهاقاً للإنسان، فضلاً عن أنه من أكثر المشاعر استمرارية وقوة، وأكثرها تأثيراً علي مستقبل الإنسان أيضاً.

يقول نيتشه : " **وحدها الأشياء التي لا تنفك تعذب تظل عالقة بالذاكرة** " فقد رأي أن في ذلك أهم المسلمات التي نادي بها علم النفس لوقت طويل، وقد أوضح أن في وسعنا أن نقول: إنه حيث لا يزال يوجد حتي اليوم في أي بقعة من بقاع الأرض، شئ من الوقار، وشئ من الرصانة، ومن الخفاء والغموض، يظل هناك شئ من " **الهلع** " الذي كان يتحكم أينما كان في الماضي، " **إن الماضي والبعيد والمظلم، والماضي الفظيع الذي يحركنا ويتأرجح في دواخلنا عندما نصبح (رصينين)، إن ذلك لم يتم إطلاقاً دون عذاب ومعاناة، دون استشهادات وتضحيات دموية ... فبعض الأفكار ينبغي أن تُجعل غير قابلة للزوال، غير قابلة للنسيان، بل ماثلة في الذاكرة دائماً** "[٢].

أو كما قال دوستويفيسكي في الجزء الأول من روايته (الأبله The Idiot) : " **لا شئ ينفع في إصلاح المرء كما تنفعه ذكري ماضيه نادماً** "[٣].

فالندم، يختلف عن مجرد الشعور **(بالأسف)**؛ فالشعور بالندم يتضمن إحساس الفرد باللوم النفسي والأخلاقي حيال تصرف ما حدث وانتهي، ويدرك أنه في حاجة لوضع الأمور في نصابها، علي الرغم من استحالة حدوث ذلك في كثير من الأحيان، أما الشعور بالأسف، فلا يتضمن فرضية لتصحيح الأمور[٤] وهي الفكرة ذاتها التي تنبأ بها **سقراط** في

1- بوتي . لورون ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

2- نيتشه : أصل الأخلاق وفصلها ، ترجمة : حسن قبيسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، (د . ت) ، ص ص ٥٦ / ٥٧ .

3- دوستويفيسكي . فيودور : الأعمال الأدبية الكاملة ، المجلد ١٠ ، رواية الأبله ، الجزء الأول ، ترجمة : سامي الدروبي ، دار ابن رشد ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٥ ، ص ٤٤٨ .

4- Sussman.D : Is Agent-Regret Rational ? (Paper) , Department of Philosophy , University of Illinois , 2014 , P. 1 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نهاية مرافعته في محاورة الدفاع؛ حين قال : " **أيها الأثينيون، لن تفيدوا بقتلي إلا أمداً قصيراً، وستدفعون له ثمناً ما تنطلق به ألسنة السوء تذيع عن المدينة العار، ستقول عنكم : إنكم قتلتم سقراط الحكيم، فسيدعونني وقتئذ بالحكيم** " [1]

أو كما ورد في الكوميديا الإلهية (الجحيم)[2]:

" **إذا أحسنت النظر في هذا الحكم، واستعدتّ إلي الذاكرة، من هؤلاء الذين يقاسون هناك في الخارج، مرارة الندم ، فستري جلياً ... لماذا يصب عليهم الانتقام الإلهي ..** ".

فيقول الشاعر الفرنسي الشهير **شارل بودلير** Baudelaire.CH (ت / ١٨٦٧) في الطبعة الأولي - عام ١٨٦١ - من ديوانه (**أزهار الشر**)[3]:

" **خطايانا عنيدة وندمنا بليد ،**

وندفع ثمناً باهظاً لاعترافاتنا ،

ونعود مبتهجين إلي الطريق المُوحل ،

معتقدين أن دموعاً زهيدة تغسل أدراننا " .

وهي الفكرة الفلسفية ذاتها التي سنجدها في مسرحية (**لا مفر**) No Exit **لسارتر** ، وكذلك مسرحية (**الأيام الخوالي**) للكاتب المسرحي البريطاني الشهير **هارولد بنتر** Pinter.H(ت/٢٠٠٨) .

ثانياً / لا مفر من الذكري، لا فائدة من الندم :

أحياناً يتم دراسة مسرحية (لا مفر) تحت عنوانين أخرين : (الجلسة سرية)، و (الأبواب المغلقة)، وهي أول مسرحية يتم عرضها في باريس بعد التحرر من الاحتلال الألماني، وتم تقديمها علي خشبة المسرح في ٢٠ سبتمر ١٩٤٤، وحققت نجاحاً عظيماً، وأصبحت إحدي كلاسيكيات المسرح .

تدور أحداث المسرحية في الجحيم، ولكنه جحيم غير متوقع؛ فهو علي شكل حجرة مؤثثة بأثاث بسيط، دون نوافذ أو مرآيا، ويقوم بأداء المسرحية ثلاثة ممثلين فقط، ولا

1- أفلاطون ، محاورة الدفاع (ضمن محاورات أفلاطون) ، ص ٨٧ .
2- دانتي ، الكوميديا الإلهية ، ص ١٩٩ .
3- بودلير .شارل : الأعمال الكاملة ، ديوان أزهار الشر (طبعة ١٨٦١) ، ترجمة : رفعت سلام ، دار الشروق، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ص ١١٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوجد بها أي تغيير في ديكور المسرح، وشخصيات المسرحية : رجل (جارسان) وامرأتان (أنيز، واستيل)، يسيرون منفصلين إلي داخل غرفة جيدة الإضاءة، ومزودة بثلاث أرائك صغيرة، ويعرف هؤلاء الثلاث أنهم ميتون، وأنه قد تم إرسالهم إلي الجحيم، ومع ذلك، لا توجد أي آلات للتعذيب، ولا توجد أي نيران لحرقهم، وسرعان ما تتضح لهم الحقيقة الرهيبة، أنه قد حكم عليهم بأن يعذب كل منهم الآخر إلي الأبد علي نحو مُدمر، وفي نهاية المسرحية يكون كل منهم قد عذب الآخر علي نحو موجع للغاية، ويكتشفون أنه لا حاجة إلي النار أو التعذيب في الجحيم؛ فكما تقول شخصية الرجل في المسرحية : " الجحيم هو الآخرون "[1].

إلا أن العنصر الرئيس في المسرحية هو الوسيلة التي يستخدمها هؤلاء الثلاث لتعذيب بعضهم، وأقصد بها تذكير كل واحد منهم لنفسه، وللأخر، بجريمته في حياته السابقة، والتي بسببها قد انتقل إلي الجحيم .

(فجارسان) مثلاً يشعر بالندم نتيجة أفعالة السيئة في حياته السابقة ، وهي : معاملة زوجته بقسوة شديدة من ناحية، وهروبه من الحرب من ناحية أخري، ثم إلقاء القبض عليه، وبالتالي يكون مصيره أن يموت ميتة الجبان، وهذا ما يقلقه، ويحزنه، ربما أكثر من جريمته في حق زوجته؛ فجميع الناس يرون أنه جبان، وبالتالي، يحاول في خضم ندمه أن يبحث لنفسه عن عذر يريحه من عذاب الندم؛ فيدعي أنه قد هرب من الحرب؛ لكونه محباً للسلام، إلا أن (استيل) تمارس تعذيبها له بتذكيره دوماً بجريمته، وتذكره بأن الناس كلها تتذكر كونه جباناً أيضاً، وحين يسألها عن رأيها في شخصيته، تجيبه : " وهل تعتقد إني أطيق جبان ؟ "

أما (أنيز) فتقول له حين يثور مدافعاً عن نفسه : " إنك تحلم بالأعمال البطولية، لكنك في لحظة الخطر تهرب " وحين يرد (جارسان) : " لقد مت عاجلاً، لم تكن لدي فسحة من الوقت لأقوم بأفعالي أنا " فتقول له (أنيز) : " يموت الإنسان دوماً آجلاً أم عاجلاً، وقد انتهت حياتك، وحان وقت الحساب، فأنت لست سوي حياتك " ثم تهتف في وجهه : " جبان، جبان ! "

1- لافين . ت . ز : من سقراط إلي سارتر ، ترجمة : أشرف محمد الكيلاني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص ٤٣٢ .

- مجاهد عبد المنعم مجاهد : سارتر بين الفلسفة والأدب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (د.ت)، ص ص ٨٩ / ٩٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مما يدفع (جارسان)، في حوار بينه وبين (أنيز)، لأن يعترف بندمه علي فعلته، وأنه لو كان حياً لكان توقفه عن الأعمال الجبانة ممكناً، وكذلك قيامه بأعمال بطولية، وتحوله من الجبن إلي الشجاعة، ولكن لما كان ميتاً وقتئذ، فإن الوقت كما قالت (أنيز) " قد فات "، وما كان في وسعه أن يغدو شجاعاً؛ لأن الموت قد وضع حداً لذلك [١] .

أما (استيل) فهي نادمة علي جريمتها التي أُدينت بسببها (إغراق طفلها في البحيرة) والتي تذكرها بها (أنيز) باستمرار، مما يدفع (استيل) للاعتراف بأنها كانت أنانية، عديمة الأخلاق، وقولها : " ما كنت أريد ذلك ! "[٢] إلا أنه ندم - بالطبع - دون فائدة؛ فلا يوجد مستقبل قادم لتصحيح ما فات !

فإحساس (استيل) هنا شبيه بإحساس (أليكترا) في مسرحية (الذباب)، حين قالت في ندم وخوف : " هل تستطيع أن تجعل كل ما حدث كأنه لم يحدث ؟ " ثم تسقط تحت لسع الذباب الذي يتدلي من السقف كعنقود العنب الأسود، وتقول : " إنها الجنيات ربات الندم"[٣].

وجدير بالذكر أن الحديث عن (الماضي) قد احتل مساحة كبيرة في الفكر الوجودي؛ فمعظم المذاهب الوجودية تميل إلي القول بإن الإنسان ليس أسير ماضيه إلي الحد الذي نتصوره؛ لأنه كما أن في وسع الإنسان أن يُحيي بالذكري ماضيه، فيستعيد وجوده، ويحياه من جديد، فإن في وسعه أيضاً أن يتنكر له وينصرف عنه، فلا يعود هذا الماضي جزءاً حياً من وجوده، بل يصبح مجرد قطعة ميتة انفصلت عن تاريخ حياته . فحقاً أن المرء لا يستطيع أن يمحو الماضي من حيث هو سلسلة الوقائع التي حدثت فعلاً في زمان قد انقضي؛ لكن في وسعه دائماً أن يغير موقفه بإزاء ذلك الماضي؛ فهذا الأخير لا يحدد أفعالنا المستقبلية؛ فالمستقبل وحده هو الذي يعرفنا ما إذا كان ذلك الماضي حياً أو ميتاً؛ وقوة الماضي إنما تأتيه من مدي تأثيره في المستقبل؛ ذلك لأن الماضي لا يندمج في وجود الذات في المستقبل، إلا علي قدر تحديد قيمة أفعالها السابقة، وتقبل تأثيرات الماضي جملة في مسوغات أفعالها المستقبلية، وتبعاً لذلك يمكن للإنسان أن يختار، إما أن يتقبل ماضيه، وإما أن يتنكر له، وإما أن يشفق علي نفسه من هول ما قد كان، مع الأخذ في

1- Sarter.J.P : No Exit : Translated into English by : Powles.P , Edited by : Rubin.D, Publications & Literary Associate , U.S.A , 2011 , P.7 .

- أيضاً : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مرجع سابق ، ص ٩٠ - ٩٣ .

2- مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مرجع سابق، ص ٩٢ .

3- سارتر : مسرحية الذباب ، نشرت في : مسرحيات سارتر ، ترجمة : سهيل إدريس ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، (د . ت) ، ص ٧٦ / ٧٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاعتبار أن الماضي في هذه الحالة الأخيرة لا يكف عن الوجود، وإنما يظل موجوداً، حاضراً في الذهن[١] وذلك مثلما ورد علي لسان بطل رواية (الغثيان) حين قال وهو ينظر إلي الشارع، ووجهه ملتصق بزجاج النافذة :

" إنني أري المستقبل، إنه هناك، في الشارع، لا يكاد يزيد شحوباً عن الحاضر، ما حاجته لأي جديد يمنحه ذلك ؟ " ثم يتحدث عن سيدة عجوز تسير وحدها ، ويقول : " هل (أري) حركتها ؟ أم أنني (أتنبأ) بها ؟ أنني لا أميز بُعد الحاضر عن المستقبل ! ... إنني لا أحس بُعد الانزلاق، ولا ملامسات الزمن "[٢] وكأن البطل يتنبأ بما سوف يحدث في المستقبل، بناءً علي تجاربه الماضية، فيتحدث عنها وكأنه يراها، ولا يدري، هل تحدث بالفعل في الحاضر، أم أنها (سوف) تحدث في المستقبل ؟ لقد أصبح بعيداً عن (ملامسات الزمن) وكأن الوجوه الثلاثة للزمن قد أصبحت وجهاً واحداً، لايدري إن كان ما يحدث (يحدث الآن حقاً)، أم (سيحدث) ؟!

فلقد أوضح سارتر أن (التوقع) أو (التبنؤ) فاعلية عقلية موازية للتذكر تماما؛ فيقول مُتحدثاً عن لعبة كرة التنس: " أري خصمي يضرب الكرة، وأتنبأ وأنا أعدو إلي الشبكة بخط سيرها، لكني لا أكّون صورة عن المكان الذي ستصل إليه الكرة . حركه خصمي تتضمن خط سيرها، وأنا أفسر حركته بطريقة خاصة، بذلك يضفي المستقبل معنيً علي ما أراه يفعل، والحركة التي حفزته علي الرد، أي ضربتي التي يردها، مندمجة بالمستوي نفسه مع حركته"[٣] وهكذا يبدو أن الذاكرة والتوقع متأصلان في كل تجاربنا؛ أي أنها معرفة بالماضي والمستقبل معاً، إلا أن هناك نوعين من المستقبل، هما: المستقبل الحي، والمستقبل المُتخيل؛ فإذا كنت أستقبل قطاراً، وأنتظر وصول أحد ما، فأني لا أرسم صورة لوصوله بالضرورة، إلا أن حقيقة انتظاري في المحطة لا تكتسب معناها إلا في ضوء هذا الحدث المستقبلي الكامن في الحاضر، ومن جانب آخر، قد أعمد إلي انتظار هذا الشخص علي نحو منفصل، وأتخيل كيف سيكون، وكيف سيتقدم لتحيتي، هذا النوع من المستقبل هو المُتخيل وليس الحي، ومعرفتي به لا علاقة لها بأفعالي الحاضرة؛ فبإمكاني تصوره علي النحو نفسه وأنا في المنزل . عند هذه النقطة يتماثل المستقبل المُتخيل مع خيالي المحض، وإذا طبقنا هذا التمييز علي الذاكرة، سنجد أن هنالك نوعاً من الذاكرة كامن في الحاضر، وجوهري لفهمي للحاضر والمستقبل[٤].

1- زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص ص ١٧٤ /١٧٥.
2- سارتر : الغثيان ، ترجمة : سهيل إدريس ، (د . م) ، (د . ت) ، ص ٤٦ .
3- نقلاً عن : ورنوك . ميري ، الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ص ٥٧ .
4- ورنوك. ميري، المصدر السابق ، ص ص ٥٧ / ٥٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدير بالذكر أن فكرة سارتر عن (التنبؤ) تتشابه كثيراً مع الفكرة التي جاء بها الفيلسوف اليوناني (أبيقور) في العصر الهللينستي؛ فلقد أوضح أن التنبؤ فكرة عامة مخزونة في العقل؛ وذلك يعني أنه استرجاع للأشياء التي طالما كانت ماثلة من الخارج، فمثلاً : حين نشير إلي هذا أو ذاك وننطق كلمة (رجل)، فإننا نفكر في شكله عن طريق التنبؤ في الوقت الذي تمدنا فيه الحواس بالمعلومات، ونحن لا نستطيع أن نبحث عن شئ ما، إلا إذا كنا نعرفه مسبقاً، فعلي سبيل المثال لكي نسأل : هل هذا الشئ الذي يقف بعيداً هو جواد أم بقرة ؟ يجب علينا أولاً أن نعرف شكل الجواد أو شكل البقرة عن طريق التنبؤ . فمن المستحيل أن تبدأ في عمل شئ ما؛ إذا لم يكن في عقلك تنبؤ عن هذا الشئ، والذي ينبع من الخبرات السابقة، وهذا ما توصل إليه، أيضاً، الباحثون في العصر الحالي، فالوظيفة العامة للذاكرة هي التنبؤ والتوقع بما هو آتٍ[١] من ناحية أخري، قدم الفيلسوف الألماني الشهير مارتن هايدجر (ت / ١٩٧٦ م) فكرة فلسفية مختلفة؛ حين أوضح أن هناك ما يسمي (بالمستقبل الزائف) وهو مستقبل يُوصف بأنه توقع Expecting، فالموجود الإنساني يمكنه أن يدرك ذاته عن طريق انشغاله اليومي بالأشياء والموجودات الحاضرة دائماً أمامه، وفي متناول يده، واستغراق الموجود الإنساني في هذا الانشغال اليومي يشغله ويُلهيه عن الاستغراق في ذاته، فلا يفهم نفسه، ويعجز عن العودة إلي ذاته الخالصه من كل هذه العلاقات، ويصبح تحت تأثير الانشغال في حال (توقع) أو تهيؤ تأتي به الموجودات المنشغله به، فينتظر أن يصبح هو أيضاً موضع انشغال الموجودات التي ينشغل هو بها ! وبالتالي يصبح هذا المستقبل مستقبلاً زائفاً، ونوعاً من التوقع، يجعل الموجود الإنساني في موقف (الانتظار)، والرجاء، والتطلع، والرغبة . ومن ثم، فإن المستقبل الزائف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحداث المحيطة بالنشاط اليومي، ويضع مشروعات مستقبلية ممكنة، فقط، من خلال ما يهتم به الموجود الإنساني . من ناحية أخري، يري هايدجر أن (المستقبل الزائف) يقوم علي نسيان الماضي، وتجاهل أصل الذات، وأصل الأشياء، مما يساعد علي الانخراط في عالم الانشغال اليومي[٢].

1- حربي عباس عطيتو : اتجاهات التفكير الفلسفي عند اليونان (العصر الهللينستي) ، مطبعة البحيرة ، البحيرة، ٢٠٠٧ ، ص ٤٩ .

- Hoerl.(Ch) : Episodic Memory, Autobiographical Memory, Narrative: On Three Key Notions in Current Approaches to Memory Development (Article) , published in Philosophical Psychology 20 , 2007 , P. 2 .

2- صفاء عبد السلام جعفر : الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ ، ص٤٠٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن لا يعني هذا أن الماضي (عقبة) في سبيل التقدم نحو المستقبل عند سارتر؛ فهذا وهم؛ لأنه ليس ثمة عقبة في ذاتها؛ فالإنسان هو الذي يخلع علي الماضي معني (العائق) أو (العقبة)، إلا أن سارتر يؤكد أن الوجود الإنساني في حركة مستمرة لا ينقطع فيها الانسحاب (الانزلاق) من الماضي، والاتجاه نحو المستقبل؛ بحيث يصبح (الماضي) هو الموجود الأسمي الذي لا يكف عن إمدادنا بالقوة والنور[١] أو كما تقول (سيمون دي بوفوار) في مذكراتها الشخصية : " لقد كان الماضي يمسكني، وقد تمنيت طويلاً، ومنذ زمن بعيد، أن أحمله كله معي إلي المستقبل"[٢] فلابد للإنسان أن يجد ذاته، وأن يوقن بأنه ليس هناك شئ يمكن أن ينقذه من نفسه؛ بل عليه هو أن ينقذ نفسه بنفسه من الماضي - الحاضر الذي يوجد في نفسه، وإلا لتحجر وأصبح شيئاً، فعلي الإنسان، إذن، أن يكون (أمام نفسه) باستمرار، فالحياة تتألف من المستقبل[٣].

ولكن، إذا كانت أحداث مسرحية (لا مفر) تتم في الجحيم الأبدي بعد الموت ، فيمكنني القول: إن هذا - في رأيي - هو أقصي مستقبل يمكن أن يصل إليه أبطال المسرحية . ومن ثم، فإن ما سوف تلقيه الذاكرة من آثار للندم علي ما فات، في الماضي، في حياة هؤلاء الأشخاص، هو انعكاس لها في المستقبل الحاضر في الحياة الأخري !

فبما أن هؤلاء الثلاثة يعيشون مستقبلهم البعيد (حياتهم بعد الموت)، فإن سارتر - من وجهة نظري - قد استطاع أن يدمج بين الماضي والحاضر والمستقبل في صورة مُبهرة، فلقد أصبح الماضي حياً في كل من : الحاضر (ما يحدث الأن بالفعل) والمستقبل (ما سوف يحدث)، فأصبح الزمن بأوجهه الثلاثة وحدة وحدة ، وكأنه زمن واحد، يسترجعون فيه ماضيهم مرة أخري، وكأنهم يعيشونه من جديد في حاضر لن يكون له آت في أي زمن آخر؛ فلا يوجد زمن آت بعد الحياة الأبدية في العالم الآخر، ولا يوجد مستقبل قادم لتصحيح ما ارتكبوه من أخطاء؛ فهم يعيشون مستقبلهم بالفعل !

أما مسرحية (الأيام الخوالي) لهارولد بنتر، فتعد واحدة من أهم الأعمال التي تهدف إلي بيان فكرة نسبية الزمن، وأن اتساق الحوادث وتسلسلها الزمني كما نعرفه - وبالتالي ترتيب وقائع الحياة علي هيئة ماض، وحاضر، ومستقبل - ليس إلا ما يُخيل لنا نحن أنه

1- زكريا إبراهيم ، مشكلة الحرية ، ص ١٧٦ .
2- سيمون دي بوفوار : مذكرات فتاة رصينة ، نقله إلي العربية : دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص٢١٦ .
3- عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، البيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٦٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو الواقع، ولكنه ليس من الضروري أن يكون كذلك، فالزمن هو المشكلة الفلسفية الأساسية التي أوحت للمؤلف بهذه المسرحية[١].

فأبطال المسرحية الثلاثة (رجل وامرأتان) يحاولون استرجاع الماضي، ومعايشه أحداثه؛ فالمرأتان الصديقتان (كيت وآنا) تسترجعان ذكرياتهما معاً، أما الرجل (ديلي) يحادث كلاً منهما؛ ليتعرف علي خبايا هذا الماضي؛ فهذه الخبايا تنعكس علي حياته الحاضرة، وعلي ذكريات من ماضيه هو أيضاً، وهذا التفاعل الزمني هو لب الموضوع، هو التعبير الدرامي عن نسبية الزمن؛ فليس هناك أحداث فعلية في المسرحية، فالأحداث كلها تأتي من الماضي، وتدور في أذهان هذه الشخصيات الثلاثة؛ فالحقيقة بالنسبة لنا هي ما نجده في أغوار الذاكرة؛ أما الذي ننساه؛ فليس حقيقة بالنسبة لنا [٢] (*) وهي الفكرة ذاتها التي أوضحها لوكريتوس في أشعاره عن فلسفة (أبيقور) فيما يتعلق بتأملاته في الحياة بعد الموت؛ فيقول :

" تقف الروح خالدة بطبيعتها ،

وتنزلق إلي الجسد لحظة الولادة،

لماذا لا يسعنا أيضاً استعادة أزمنة مضت،

بالإبقاء علي آثار حيواتنا السابقة ؟

لكن، إذا كانت قوة الروح متبدلة إلي درجة

أن كل مخزون عملها السابق يسقط ،

فهذا، علي ما أخال،

لا يختلف كثيراً عن الموت " .

1- محمد شبل الكومي : الوجود والحرية بين الفلسفة والأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٩، ص ص ٢٨٠ / ٢٨١ .

2- بنتر . هارولد : الأيام الخوالي ، ترجمة : الشريف خاطر ، مراجعة : محمد الحديدي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٠ / ١١ .

(*) يقول طه حسين في (الأيام) : " **ولكن ... ذاكرة الإنسان غريبة؛ حين تحاول استعراض حوادث الطفولة، فهي تتمثل بعض هذه الحوادث، واضحاً جلياً، كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شئ، ثم يمحي منها بعضها الآخر، كأن لم يكن بينها وبينه عهد** " .

- طه حسين : الأيام ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعني آخر: إن لم تستطع تذكر حيواتك الماضية، فالأمر مساوٍ، تقريباً، لعدم وجودها، وإن كنت ستعيش بعد الموت، لكن دون ذاكرة، فالأمر مساو، تقريباً، للموت[١] خاصة وأن أبيقور قد أوضح أن خوف الإنسان من الموت قد جعله يرغب في الخلود، ويصوب اهتمامه نحو الأزل المستقبل، مُتناسياً الأزل الماضي وغير مُكترث به[*] فنحن - في رأيه - لا نعبأ بالزمن الماضي الذي لم نعشه، ولا نندم علي القرون الطويلة التي لم نوجد فيها، ولكننا نرغب في العيش إلي الأبد، ونخشي الرجوع للعدم الذي سبق وجودنا، وفي هذا الصدد يقول (لوكريتوس) مُثبتاً أن المستقبل لا ينبغي أن يكون موضوع خشية أكثر من الماضي :

" انظر كم نحن لا نبالي بالدهر الماضي الذي سبق ميلادنا،

ذلك الدهر الذي جعلتنا الطبيعة

نري فيه الأزمنة المستقبلية التي ستعقب موتنا،

فهل تري فيها ما يُخيفك أو ما يحزنك؟

ألا تري فيه سكينة تفوق سكينة كل نوم ؟ "[٢].

فالخوف من الموت أمر لا مُبرر له؛ فالإنسان لم يُجربه " فعندما نكون، فالموت لا يكون، وعندما يكون الموت، فنحن لا نكون، وعلي هذا، فالموت لا يعني الأحياء ولا الأموات؛ لأنه لا يمت بصلة للأحياء، ولأن الأموات لم يعودوا موجودين"[٣]

فإذا كان لا يوجد عقاب بعد الموت، ولا توجد حياة في العالم الآخر؛ فعلي الإنسان أن يلتفت لحياته المُعاشة ، وأن يفرح بما لديه، وأن يحيا في راحة بال في حياة مُرفهة آمنة، دون التفكير فيما حدث في الماضي؛ ودون خوف من المستقبل المجهول[٤].

1- هيكت . جينفر مايكل : تاريخ الشك ، ترجمة : عماد شيحة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٤ ، ص ٢٦٦ .

(*) من وجهة نظري أن **(التناسي)** يختلف عن **(النسيان)**؛ فالتناسي محاولة لإلهاء النفس عن التفكير فيما يؤلمها، بحيث تتجاهل وجوده بصورة مُتعمدة، ومن ثم يحاول الإنسان أن يحيا بصورة طبيعية قدر الإمكان. إلا أن التناسي - في رأيي - ما هو إلا نسيان زائف؛ وإلهاء مُتعمد رغبةً في تحاشي فكرة معينة .

2- أبيقور الرسائل والحكم ، دراسة وترجمة : جلال الدين سعيد ، الدار العربية للكتاب ، (د.م) ، (د.ت) ، ص ١٠٢ .

3- المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

4- Taylor.(A.E) : Epicurus , Dodge Publishing Co. , New York , 1910 , P. 37 .

- Hankinson.(R.J) : Cause and Explanation in Ancient Greek Thought, University of Texas , U.S.A , 1986 , P. 212 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس كل من يتذكرون يندمون، فيمكن أن يتذكر الإنسان ما فعله في الماضي من حماقات، ولا يندم عليها في المستقبل !

فمدرسة (الكارفكا) الهندية القديمة - علي سبيل المثال - قد دعت إلي تمتع الإنسان بحياته إلي أقصي درجة ممكنة، فمن غير المنطقي أن يهدر الإنسان حياته في التفكير في الألم؛ نظراً لما سوف يُجلبه له هذا التفكير من بؤس وشقاء . فحين يأتي الموت، لن يعقبه حساب علي الأفعال الدنيوية؛ وبالتالي لا يجب علي الإنسان أن يهتم كثيراً لأفعاله. أي أن الكارفكا هي العقيدة الهندية الرئيسة التي تحاول بأفكارها الفلسفية أن تضمن لك سعادة مادية بشتي الوسائل، وهذه السعادة هي التي ستقضي علي الألم بمرور الوقت[١] وهذا ما عبرت عنه في إحدي الشذرات بقولها :

" طالما إن كل واحد منا

علي قيد الحياة،

فكل واحد منا يجب عليه أن يعيش بسعادة؛

فلا أحد منا سوف يحيا بعد الموت ..

فبمجرد أن يُحرق الجسد،

فكيف يمكن أن يعود للحياة مرة أخري ؟ "

فقد وصل الأمر بهذا المذهب إلي دعوة الإنسان الذي يمتلك أموالاً، أو أشياءً ثمينة في حياته، إلي الاستدانة من الآخرين؛ لضمان حياة سعيدة دائمة إلي أن تحين لحظة وفاته، دون أن يهتم إذا كان بوسعه رد هذا الدين أم لا ![٢].

من ناحية أخري، نجد نيشته قد اهتم كثيراً ببحث مشكلة (الذنب) و(الضمير المعذب) وماشاكلهما من قضايا؛ فيقول في كتابه (أفول الأصنام) تحت عنوان : إعادة تأهيل الذات أخلاقياً[٣]:

1- Dasji.(S.S.P) , Indian Philosophy , Shree Narnarayan Dev Printing Press , India , 2010 , P. 19 .

- Chatterjee.(S), Datta.(D) : An Introduction to Indian Philosophy , Calcutta University Press , Calcutta , 1948 , P. 29 .

2- Dasji.(S.S.P) Indian Philosophy, P. 20 - 22 .

3- نيتشه : أفول الأصنام ، ترجمة : موسي وهبة ، مطبعة الفارابي ، (د.م) ، ط٢ ، (د.ت) ، ص ١٠٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" تقول ذاكرتي : " فعلت هذا " . فترد كبريائي : "لا يمكن أن أكون فعلت هذا" - وتبقي مُصرة . وأخيراً، تلين الذاكرة " .

فكل ما هو عميق مُقنع ! وهناك أمور يحسن المرء صنعاً بطمرها وموارتها عن الأبصار، في حين أن هناك من يُتقن تعكير ذاكرته الخاصة والتنكيل بها[١] فإذا كان الإنسان، في نظر نيتشه، هو الإنسان المحكوم عليه بالنسيان، والذي هو قوة ومظهر لصحته، فإن الإنسان قد خلق لنفسه ملكة مناهضة هي الذاكرة[٢].

فالنسيان ليس كناية عن طاقة راكدة وحسب - كما يعتقد أصحاب العقول السطحية - بل هو أميل إلي أن يكون قدرة فاعلة، ملكة عرقلة وتعطيل، بالمعني الحقيقي للكلمة، فهو مشكلة حقيقية فرضتها الطبيعة علي الإنسان، وجعلته قادراً علي قطع العهود. فالنسيان هو الملكة التي تُنسب إليها (هضم) كل ما عرفناه، وكأنه امتصاص نفسي لكل ما عايشناه، وكل ما حدث لنا من أحداث استوعبناها في الماضي في وقت ما[٣]. إلا أن النسيان، وعلي الرغم من وصف نيتشه له (بالملكة المُعرقلة)، هو - في الوقت نفسه - ضرب من الملكة الحارسة، المُراقبة، المُكلفة بالحفاظ علي الأمن النفسي والطمأنينة الداخلية في الإنسان " فلا سعادة البتة، ولا صفاء، ولا أمل، ولا إباء، ولا استمتاع باللحظة الآنية، دون وجود ملكة النسيان " فالإنسان الذي لا ينسي، أو الذي " تعطل لديه جهاز الإخماد" علي حد قول نيشته، إنسان شبيه بالمُصاب بعسر الهضم . ومن ثم؛ فإن النسيان ظاهرة صحية، قوية، تقابلها ملكة أخري تُحبط وظيفتها، هي ملكة الذاكرة، وهي تمنعنا من " التفلّت " من وعودنا، أو التفلّت من الضيق الذي نشعر به حين نقطع الوعود، ولا نفي بها؛ لذلك يري نيتشه أن السبيل الوحيد لحفظ العهود، هو الإحساس بالمسئولية، والتعود علي الانضباط حتي يتمكن الإنسان من الحفاظ علي أفعاله الحاضرة " بوصفها مستقبلاً " سيُحفظ في النفس، وترده الذاكرة إلينا يوماً ما[٤].

أو كما ورد علي لسان للكاتب الأرجنتيني الشهير إرنستو ساباتو Sabato.E (ت/٢٠١١) في روايته (النفق) : " الحياة تكمن في بناء ذكريات مستقبلية "[٥].

1- المصدر السابق ، ص ٧٠ .
2- عبد الوهاب جعفر ، مبادئ الفلسفة وقضاياها المعاصرة ، ص ١٥٣ .
3- نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها ، ص ٥٣ .
- Marder.(M) : History, Memory, and Forgetting in Nietzsche and Derrida (Paper), University of the Basque Country, Spain, 2004 , P. 137 .
4- نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها ، ص ٥٤ .
5- ساباتو. إرنستو : النفق ، ترجمة : عبد السلام عقيل ، الأهالي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨، ص ١٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالنسيان عند نيتشه ليس (فشلاً) للذاكرة؛ وليس نوعاً من القصور الذاتي؛ بل هو الملكة التي تذودنا (ببعض الصمت) أو السكون، وتمد عقولنا بصفحة (نظيفة) يمكن استخدامها بعد ذلك؛ لاستقبال المزيد من الأحداث في المستقبل، وكأنه (نسيان نشط) ينسي الماضي العنيد؛ لكي نتغلب علي صدماتنا، ونمضي في حياتنا في سعادة واطمئنان؛ فالنسيان ضرورة للاستمرارية الدنيوية؛ وكأننا بنسيان الماضي، نصنع المستقبل[١] فأحسن جانب من تاريخ الإنسان هو الذي سيطلع به مستقبله، وليس الذي طواه ماضيه[٢].

من ناحية أخري، نجد أن الإنسان لن يمكنه - حتي لو أراد - أن يتذكر كل ما حدث له في حياته . فعلي سبيل المثال : لو إننا طلبنا من الإنسان أن يحتفظ في ذاكرته بكل ما يقرأ، فكأننا نطلب منه " أن يعيش بيننا وهو محتفظ، في داخله، بكل ما تناوله في حياته من طعام " علي حد قول شوبنهاور؛ فالإنسان لا يستبقي في ذهنه إلا ما هو مثار اهتمامه، أو بعبارة أخري، ما هو ملائم لنسقه الفكري، أو لأغراضه في الحياة[٣].

ثالثا / الذكري بوصفها حضوراً للغائب :

إذا كان جبران قد أوضح أن " الذكري صورة من صور اللقاء " فإن هذه الجملة تعبر في جوهرها عن فكرة فلسفية أصيلة، وهي أن الذاكرة تمثل حضوراً لما هو غائب . فيقول **(بارمنيدس)** :

" الكينونة الغائبة،
تأمل فيها، مع ذلك ككينونة حاضرة بتأكيد في العقل؛
لأنها لن تفصل الكائن عن محاذاته للكائن،
لا ببعثرة شاملة حسب ترتيب العالم، ولا بتجميع"[٤].

1- Gallowy.(A): Collective Remembering and the Importance of Forgetting: A Critical Design Challenge (Paper) , Dept. of Sociology & Anthropology Carleton University, Canada, (Without Date) , P. 3 .

2- رسل. برتراند : صور من الذاكرة (ومقالات آخري) ، ترجمة : أحمد إبراهيم الشريف ، مراجعة : زكي نجيب محمود ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٧ .

3- شوبنهاور : فن الأدب (مختارات من شوبنهاور) ، أعدها بالإنجليزية : بيلي سوندرز ، ترجمة وتعليق : شفيق مقار، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص ص ١٠٧ / ١٠٨ .

4- سوفاج . ميشلين : برمنيدس ، ترجمة : بشارة صارجي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهناك فارق بين (الغياب) والنسيان (التلاشي)؛ فحين تسقط الأوراق عن الأشـــجار في الخريف ونراها تقف ذابلة في الشتاء، يمكننا أن نقول : (غاب الأخضر)؛ لأننا نتذكره، ونشعر بالحنين إليه؛ فنحن لم ننساه، رغم غيابه عن عيوننا[١].

فيقول (ريلكه)[٢]:

" **مازلنا نمثل أدوارنا، نردد ما تعلمناه، بالألم والمشقة،**
ونرسل الإشارات من حين إلي حين،
لكن وجودك الذي ابتعد عنا وغادر دنيانا،
يمكن أن يفاجئنا أحياناً، كأنه معرفة تهبط علينا من ذلك الواقع " .

ويمكنني القول إن فكرة (الحنين) إلي الماضي، تتصل كثيراً بفكرة (الألفـــة) التـــي أشار إليها **برتراند رسل** أثناء بحثه في الذاكرة؛ فلكي تشعر بالحنين إلي شئ ما، فلابـــد أن يكون بينك وبينه شئ من الألفة أو التعود .

فيقول رسل : " **لكي تصبح الصورة ذكري، يجب أن يـــصاحبها شـــعوران : الأول/ شعور بالألفة، والثاني/ شعور بانقضائها (أي أنها تعود للماضـــي)، يقودنـــا الأول إلـــي الوثوق بذكرياتنا، بينما يعطيها الثاني أماكنها في تسلسلها الزمني** "[٣].

فالإنسان يمكن أن يشعر بمشاعر الانقضاء أو الألفة، التي قد ترتبط بـــذكريات قـــد تكون مهمة بالنسبة له؛ إذ تصاحبها كل أنواع المشاعر الأخري، مثل الحنين إلي الماضي، والاشتياق، والأسف . فالإنسان يشعر بالألفة تجاه محتوي الصورة؛ لأن الأشياء كانت كما هي عليه في الصورة ، ولكن في الماضي، فنحن نشير، عندما نتحدث عن الانقضاء، إلي شئ ما حدث بالفعل، أو وُجد فعلاً في الماضي، ضمن العالم الواقعي[٤].

فإذا كان الفهم يتأسس علي المستقبل، فأن التأثر الوجداني يتـــزامن، أساســـاً، مـــع الماضي، كما ذهب هايدجر، ومن ثم، فأن التأثر الوجداني يقوم علي الانقـــضاء، الـــذي لا يخلو من خصائص الحاضر والمستقبل بطبيعة الحال؛ فالحاضر يتخذ موضعه في اللحظة (الحالية)، وفيها يرتبط بماض يستعيده الإنسان، عن طريق مستقبل يـــشرع نحـــوه بكـــل

1- شتروفه : فلسفة العلو ، ترجمة : عبد الغفار مكاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص ص ٣٨ / ٣٩ .
2- نقلاً عن : شتروفه ، فلسفة العلو ، ص ص ٢٥٢ / ٢٥٣ .
3- نقلاً عن : ورنوك . ميري ، الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ص ٣٧ .
4- ورنوك . ميري ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تصميم[١] ومن ثم، فإن النسيان حالة ناقصة من أحوال تزمن الانقضاء (أو ما قد كان)، خاصة وأن في حياتنا اليومية شواهد كثيرة علي تنكر الإنسان لماضيه، ومحاولة إسدال ستر من التجاهل، والتناسي، والنسيان، والإنكار عليه، حين يكون بصدد التخطيط لمستقبله، وبهذا الإسلوب فإن الإنسان ينغلق علي نفسه، وينخدع فيها، ويتهرب منها[٢] فيقول هايدجر: " **الماضي ليس (خلف) الحاضر، بوصفه شئ لم يعد موجوداً بعد، وليس المستقبل هو (الأمام)؛ بوصفه ما ليس بعد، بل ينبغي أن يُقال : إن الماضي يتجاوز الحاضر والمستقبل معاً؛ فالمستقبل ليس هو البعد الذي سيكون، بل هو بأن يكون الحاضر والماضي، والحاضر ليس هو (البعد) الذي يتلو الماضي ويسبق المستقبل، بل هو يوجد مع الماضي والمستقبل معاً** "[٣].

فهناك امتداد للماضي في الحاضر، وهو الامتداد الذي وصفه **برجسون** (ت / ١٩٤١) من قبل **(بالديمومة)**؛ وهي ما تعبر عن التقدم المستمر للماضي، الذي ينخر في المستقبل، ويتضخم كلما تقدم؛ فالماضي ينمو دون انقطاع، وعلي نحو غير محدد، وبالتالي يحتفظ ببقائه، فتراكم الماضي علي الماضي لا يتوقف، والحاضر لا يحتوي علي شئ أكثر مما يحتوي عليه الماضي، وأن ما نجده في النتيجة، كان موجوداً في سببها[٤](*).

1- صفاء عبد السلام جعفر ، الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر ، ص ٤٠٢ - ٤٠٨ .

2- عبد الغفار مكاوي : نداء الحقيقة (مع ثلاثة نصوص عن الحقيقة لهيدجر) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص ١٠١ .

3- صفاء عبد السلام جعفر، مرجع سابق ، ص ٤١١ .

4- برجسون . هنري : التطور الخالق ، ترجمة : محمد محمود قاسم ، مراجعة : نجيب بلدي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٥ ، ص ١٥ - ٢٣ .

(*) يقول إرنستو ساباتو في كتابه (الممانعة) : " **إن ذاكرتي لتتألف من جماع شذرات وجود ثابتة وخالدة، لا يمر الزمن بين فجواتها، ومن الممكن لبعض الأشياء والوقائع بعينها، مما حصل مثلاً علي مدار سنين عديدة، من الفرق الفاصل بينها، أن يُضاف إلي بعضها الآخر، مما جري ضمه، أو اقتحامه، من قبل عناصر جاذبة أو منفرة من النوع الغريب . وفي بعض الأحيان، يتم كذلك تمثل هذه الأشياء والوقائع في الوعي، تمثلاً يجعلها تبدو متحدة، تجمع بينها بعض الروابط العبثية، إلا أنها روابط غير قابلة، مع ذلك، للتفكك، كرابط أغنية من الأغنيات مثلاً، أو مزحة، أو موضوع يثير كراهية مشتركة** " فالإنسان يرتد ببصره للبعيد، إلي أعماق نفسه، بين ركام " **تربة الذاكرة المتراكمة** " فالذاكرة هي الشئ الوحيد الذي يستطيع أن يصمد في وجه تقلبات الزمن، وفي قدرته الهائلة علي الهدم والتخريب " **فإن هناك شيئاً ما في الإنسان، شيئاً في قرارة أعماقه، في المناطق الأشد حلكة من كنهه، يظل شديد التمسك بطفولته، فيبدو بذلك قادراً علي الممانعة والصمود** "

- ساباتو . إرنستو : الممانعة ، ترجمة : أحمد الوزير ، دار الثقافة والإعلام ، الشارقة ، ٢٠١٠ ، ص٥٢-٥٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كان الماضي يحتفظ ببقائه؛ دائماً، في الحاضر والمستقبل، فإن الذكريات الممتازة، علي حد تعبير برجسون، تستطيع المرور، حتي دون إرادتنا " **خلال ذلك الباب المنفرج قليلاً** " من الشعور؛ فالماضي، بأسره، يتبعنا في كل لحظة، فكل ما شعرنا به، وفكرنا فيه، وأردناه منذ طفولتنا الأولي ماثل أمامنا، وباسط ذراعيه نحو الحاضر الذي سيلحق به، وضاغط علي باب الشعور الذي يرغب لو تركه في الخارج (فكما يقول سارتر : **كرهت طفولتي وكل شئ بقي منها)** فالذكريات - كما يري برجسون - هي رُسل اللاشعور، التي تنذرنا بوجود ذلك الماضي الذي نجره خلفنا دون أن ندري[1] أو كما قال سقراط من قبل : " **إن الذكري في لقائها مع الأحاسيس والأفكار، التي يثيرها هذا اللقاء تبدو لي عندها، إن جاز لي القول، إنها تكتب في نفوسنا عدة خطابات، وحين يسجل مثل هذا التفكير أشياء صحيحة، فإن نتيجة ذلك فينا يكون صواباً، وخطابات صادقة**"[2].

فالعقل وحده لن يُمكننا من تذكر كل معرفة ماضية؛ لأنه إذا كان العقل يستطيع أن يصول ويجول في ميدان المادة، أو ميدان الحس الخارجي، فإنه لا يستطيع ذلك في ميدان النفس أو ميدان الحس الباطني، فهذا الأخير له زمن خاص مختلف عن الزمان المادي المرتبط بالمكان، والعقل لا يستطيع أن ينفذ إلي هذه المنطقة الخاصة بالحس أو الزمان الباطني، ولا يستطيع أن يخضعها لمقولاته؛ فيجب إذاً أن نبحث عن ملكة أخري تستطيع وحدها أن تختص بالحس الباطني وبالزمان اللاشعوري، وهي ملكة الحدس، وهي ضرب من الإدراك المباشر لحياتنا الباطنية، ولمجري شعورنا الداخلي؛ فهذا الإدراك، وحده، يستطيع أن يتفهم الحياة وينفذ إلي تيارها المُتدفق؛ الأمر الذي يعجز عنه العقل؛ لأن هذا الأخير لا يستطيع أن يقوم بعمله إلا إذا حلل الكل إلي أجزائه، وقسم مجري الحياة المتصل إلي قطع وأجزاء منفصلة، لكن الحياة لا تُدرك إلا ككل، وإدراكها علي هذه الصورة من اختصاص الحدس وحده . وهي الفكرة قد قدمها الأديب النورماندي - الحائز علي جائزة نوبل في الآداب - **صمويل بيكت**، في صورة رائعة، في مسرحيته الشهيرة **(في انتظار جودو)**؛ فشخصيات المسرحية تنتظر البطل، (جودو) طوال الوقت، إلي أن يأتي غلام ويعلن أنه لن يتمكن من المجئ هذا المساء، وبأنه سيأتي، بالتأكيد، غداً ! وربما يبدو الظاهر بسيطاً، أما الجوهر فعميق للغاية؛ (فجودو) حاضر معهم، طوال الوقت، علي

1- برجسون ، التطور الخالق ، ص ١٥ .
- لافين . ت . ز ، من سقراط إلي سارتر ، ص ٣٨٧ .
2- نقلاً عن : ريكور. بول ، الذاكرة، التاريخ، النسيان ، ص ٤٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرغم من غيابه ! فهو حاضر، زمنياً ومكانياً، في الحوارات المتشعبة عنه، وكأن البطل الغائب قد أصبح حاضراً بمجرد الحديث عنه[١] " **فحين يكون التأثر حاضراً، ولكن الشئ غائب، نتذكر ما ليس بغائب** " كما قال أرسطو؛ فمادام التأثر موجوداً، فمعني ذلك أننا لا نتذكر شيئاً غائباً، ومن ثم، فإن الغائب حاضر بيننا باستحضاره في الذاكرة[٢].

ومن ثم، فإن الماضي - في رأيي - لا ينفصل عنا، وليس لنا أن نتراجع عنه بصورة نهائية؛ فهو ليس ذلك " **الهيكل العظمي** " الذي نتركه وراءنا، دون أن نعبأ به - علي حد قول سيمون دي بوفوار - وليس حطاماً، ولا أطلالاً تتهدم أمامنا كلما أمضينا قدماً إلي الأمام[٣] فنحن نستحضر الماضي في حاضرنا، ويكون المستقبل ثمرة هذا الاستحضار.

فالإنسان يحيا في ديمومة زمنية؛ فلا عزلة، ولا انفصال تام بين ماضيه وحاضره؛ فكل منهما نسيج زمني يلتحم بالأخر، في وحدة لا تقبل الانقسام، وكل لحظة زمنية جديدة تنضم إلي ما كان موجوداً منها من قبل، فتشكل في مجموعها (الأنا) التي تكبر شخصيتها وتنمو وتنضج دون انقطاع .

فالماضي يكمن في ذاكرتنا، وهو يعود إلينا دائماً، وكل بداية جديدة في الحاضر، ما هي إلا استكمال للماضي لا غير ..

أو كما تقول الشاعرة البولندية الشهيرة **فيسوافا شيمبوراسكا** Szymbroraska.W (١٩٢٢-؟) [٤] :

" كل بداية

هي تتمة لا غير،

وكتاب الأحداث

دائماً مفتوح علي النصف " .

1- محمد شبل الكومي ، الوجود والحرية بين الفلسفة والأدب ، ص ص ٣٢٦ / ٣٢٧ .
2- ريكور. بول ، الذاكرة، التاريخ، النسيان ، ص ٤٩ .
3- ورنوك . ميري ، الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ص ١٢٠ .
4- شيمبوراسكا . فيسوافا : البداية والنهاية وقصائد أخري، ترجمة : هاتف الجنابي، دار المدي للثقافة والنشر، سوريا، ١٩٩٨، ص ٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة :

من خلال الدارسة التحليلية النقدية المقارنة لمفهوم الذاكرة بين الفلسفة والأدب، يمكنني أن أرصد أهم النتائج التي توصلت إليها جرّاء تلك الدراسة، وذلك في النقاط الآتية:

أولاً / إن التذكر تجربة عقلية وشعورية فريدة؛ فهو استعارة مكانية وزمانية لما حدث في الماضي. فالذاكرة، لا تتمثل وظيفتها في حفظ الأفكار البسيطة فقط، بل حفظ ترتيبها ومواقعها، وإعادة عرضها في وقت لاحق، وسط إحساس من الألفة بين صورة الماضي والصورة الحالية؛ فمرآة الذاكرة هي وسيلتنا لبلوغ الماضي مرة أخري .

ثانياً / قدم الفلاسفة علي مدار عصور الفكر الفلسفي كثيراً من التفسيرات المختلفة لطبيعة الذاكرة؛ فلقد أجاب **(أفلاطون)** عن تساؤل فلسفي مُحير : هل يمكننا أن نتذكر شيئاً لم نعشه من قبل ؟ فأوضح إن الذاكرة لا تكون عن لا شئ، فالإنسان يتذكر ما قد رآه بالفعل في حياته السابقة، ومن ثم فإن معرفتنا الحالية ما هي إلا ذكريات تعود إلينا في واقعنا الحالي؛ فالمعرفة تذكر لما طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال، ومن ثم فإن النسيان ماهو إلا فقدان للمعرفة لا أكثر ولا أقل . أما **(أرسطو)**، فلم يحصر الذاكرة في مجال المعرفة فقط، بل كانت الذاكرة، عنده، وسيلة لجعل الماضي، الغابر، مرئياً مرة أخري . فالذاكرة عند أرسطو بمثابة الخزانة التي نحفظ بداخلها انطباعاتنا الحسية التي تُستدعي، مرة أخري، إلي الحاضر، فيندمج هذا الأخير مع الماضي في وحدة واحدة، بحيث يتم الانتقال ذهنياً من حدث إلي آخر؛ فكل صورة تستدعي الأخري، وفقاً لعلاقات التشابه، أو التعارض، أو التجاور .

ثالثاً / إن الذاكرة لا تلقي بظلالها علي الحاضر فقط، بل علي المستقبل أيضاً؛ ويبدو هذا جلياً في إحساس الإنسان **بالندم**؛ فهو إحساس لا يُمحي بمرور الوقت كسائر الإحساسات، فهو من أكثرها قوةً وأرقاً، واستمراريةً أيضاً؛ فوحدها الأشياء التي لا تنفك تعذب، تظل عالقة بذاكرة الإنسان، كما أوضح نيتشه، فالندم يختلف عن مجرد الشعور **(بالأسف)**، والذي لا يتضمن فرضية لتصحيح الحماقات الي قام بها الإنسان من قبل، علي العكس من الإحساس بالندم، والرغبة الصادقة في أن تعود الأيام إلي الوراء، لتصحيح ما أُرتكب من أفعال، وهي الفكرة التي أشار إليها **(سقراط)** في دفاعه، وعبر عنها **(دانتي)** في أشعاره في صورة مفصلة، وقدمها كل من : **(بودلير)**، و**(هارولد بنتر)**، و**(سارتر)** في صورة أدبية رائعة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً / لقد ربط **(سارتر)** بين كل من : التوقع (التنبؤ)، والتذكر، فأوضح أن كلاً منهما متأصل في كل تجاربنا العقلية والشعورية، فكلاهما يعد معرفة بالماضي والمستقبل معاً، وهي الفكرة الفلسفية التي توصل إليها **(أبيقور)** من قبل، علي نحو مشابه للغاية. إلا أن سارتر قد أوضح أن هناك ما يسمي **(بالمستقبل الحي)** الذي لا يُرسم له صورة ذهنية مسبقة بالضرورة، وذلك علي العكس من **(المستقبل المُتخيل)** والذي يتماثل، إلي حد ما، مع الخيال المحض. ومن ثم، فإن هناك نوعاً من الذاكرة يكمن في الحاضر، وهو ضروري لفهم هذا الأخير، والتوقع بالمستقبل في الوقت نفسه .

خامساً / لقد ساوي **(أبيقور)** بين (النسيان) و(اللاوجود)، فإذا كان الإنسان غير قادر علي تذكر حياته الماضية، فالأمر مساوٍ، تقريباً، لعدم وجودها، وإذا كان الإنسان سيعيش بعد الموت، دون ذاكرة، فالنسيان، بالتالي، مساوٍ للموت ! ومن ثم، فإن الخوف من الموت أمر غير مُبرر، وغير منطقي، وهي الفكرة ذاتها التي وردت من قبل في شذرات مدرسة **(الكارفكا)** القديمة، فما حدث قد حدث، ولا سبيل للخوف من المستقبل القادم.

سادساً / قدم **(نيتشه)** تفسيراً مختلفاً للنسيان، فهو بالنسبة إليه (الملكة المعرقلة)، (والملكة الحارسة) في الوقت نفسه . فالنسيان، هو السبيل للطمأنينة الداخلية، والهدوء النفسي للإنسان؛ فلا سعادة، ولا أمل، ولا صفاء، ولا استمتاع باللحظة الراهنة، دون نسيان . فهذا الأخير ليس فشلا للذاكرة، وليس نوعاً من القصور الذاتي، بل هو السبيل لبعض من (الصمت) أو السكون، الذي يمد عقولنا بصفحة (نظيفة) يمكن استخدامها بعد ذلك لاستقبال المزيد من الأحداث . ومن ثم، فإن النسيان عن نيتشه ليس موتاً، كما ذهب أبيقور، بل ضرورة دنيوية، لصنع المستقبل، وهي الفكرة ذاتها التي عبر عنها الكاتب الأرجنتيني الشهير **(إرنستو ساباتو)** في رواية (النفق)؛ فالإنسان يصنع، بحاضره، ذكرياته المستقبلية .

سابعاً / لقد استطاع **(بارمنيدس)** أن يقدم في أشعاره الفكرة الفلسفية ذاتها التي عبر عنها كل من: **برجسون، وبرتراند رسل، ومارتن هايدجر** في الفكر الفلسفي المعاصر. فإذا كانت الذكري صورة من صور اللقاء مع الماضي مرة أخري، فالذكريات، إذن، التي تعود إلينا بدرب من الألفة والحنين، كما ذهب رسل، هي حضور لما غاب عنا في حاضرنا . فالذكريات تصاحبها مشاعر الألفة، والحنين إلي الماضي، والأسف علي ما فات . ومن ثم، فإن التأثر الوجداني، كما ذهب هايدجر، يقوم علي الانقضاء الذي لا يخلو من خصائص الحاضر والمستقبل معاً . فالماضي ليس (خلف الحاضر) بوصفه لم يعد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موجوداً، والمستقبل ليس هو (الأمام) الذي لم يأت بعد، فالمستقبل هو ما يتكون بالحاضر والماضي معاً، وهي الفكرة التي عبر عنها **برجسون (بالديمومة)**؛ فتراكم الماضي علي الماضي لا يتوقف، والحاضر لا يحتوي علي شئ، أكثر مما أحتوي عليه الماضي بالفعل؛ فما نجده في النتيجة، كان موجوداً في سببها . ومن ثم، فإن (الذكريات الممتازة) قادرة علي المرور إلي حاضرنا، حتي دون إرادتنا، فالذكريات هي رسل اللاشعور، التي تُنبهنا إلي الماضي الذي نجره خلفنا دون أن ندري ! وبالتالي، فإن الشئ (الغائب) يكون حاضراً معنا، بمجرد تذكره، أو الحديث عنه، علي الرغم من غيابه، وهي الفكرة الفلسفية التي قدمها **صمويل بيكت** في رائعته (في انتظار جودو)، وعبر عنها **(أرسطو)** من قبل، حين أوضح أن (التأثر) الحاضر بالشئ الغائب، يجعل الغائب حاضراً رغم غيابه . ومن ثم، فإن الماضي الذي لا نعبأ به، أحياناً، ونظنه بعيداً عنا، كالأطلال التي تهدمت وراءنا، هذا الماضي كامن في الذاكرة، وهو يعود إلينا دائماً، وما لحظات النسيان إلا لحظات قليلة من الحرية، يعود بعدها الماضي إلينا، بخطابات تكتبها الذكريات في لقائها مع نفوسنا، كما ذهب **(سقراط)**، فالماضي، محتفظ ببقائه في الحاضر، وباسط ذراعيه نحو المستقبل الذي سيلحق به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمُترجمة

أولا / المصادر العربية والأجنبية والمُترجمة :

أ - المصادر العربية :

١- جبران خليل جبران : رمل وزبد ، ترجمة : أنطونيوس بشير ، دار العرب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٦ .

٢- طه حسين : الأيام ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

ب- المصادر الأجنبية المترجمة :

١- أفلاطون : محاورات أفلاطون (أوطيرفون - الدفاع - أقريطون - فيدون) ، ترجمة : زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢ .

٢- ـــــــ : محاورة ثياتيتوس (أو عن العلم) ، ترجمة وتقديم : أميرة حلمي مطر ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

٣- اللآئرسي . ديوجينس : حياة مشاهير الفلاسفة ، المجلد الأول ، ترجمة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام ، راجعه علي الأصل اليوناني : محمد حمدي إبراهيم ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .

٤- برجسون . هنري : التطور الخالق ، ترجمة : محمد محمود قاسم ، مراجعة : نجيب بلدي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٥ .

٥- بنتر . هارولد : الأيام الخوالي ، ترجمة : الشريف خاطر ، مراجعة : محمد الحديدي ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٨٨ .

٦- بودلير .شارل : الأعمال الكاملة ، ديوان أزهار الشر (طبعة ١٨٦١) ، ترجمة : رفعت سلام ، دار الشروق، القاهرة ، ٢٠٠٩ .

٧- بيسوا . فيرناندو : كتاب اللاطمأنينة : ترجمة : المهدي أخريف ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٨ .

٨- دانتي : الحياة الجديدة ، ترجمة : محمد بن صلاح ، دار كلمة ، أبو ظبي ، ٢٠٠٩.

٩- ـــــ : الكوميديا الإلهية (الجحيم) ، ترجمة : حسن عثمان ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٠- دي بوفوار. سيمون : مذكرات فتاة رصينة ، نقله إلي العربية : دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٩ .
١١- دوستويفيسكي . فيودور : الأعمال الأدبية الكاملة ، المجلد ١٠ ، رواية الأبله ، الجزء الأول، ترجمة : سامي الدروبي ، دار ابن رشد ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٥ .
١٢- رسل. برتراند : صور من الذاكرة (ومقالات آخري) ، ترجمة : أحمد إبراهيم الشريف ، مراجعة : زكي نجيب محمود ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
١٣- ريكور. بول : الذاكرة ، التاريخ ، النسيان ، تحقيق وترجمة : جورج زيناتي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ٢٠٠٩ .
١٤- ساباتو . إرنستو : الممانعة ، ترجمة : أحمد الوزير ، دار الثقافة والإعلام ، الشارقة ، ٢٠١٠ .
١٥- ـــــ : النفق ، ترجمة : عبد السلام عقيل ، الأهالي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨.
١٦- سارتر : الغثيان ، ترجمة : سهيل إدريس ، (د . م) ، (د . ت) .
١٧- ـــــ : مسرحية الذباب ، نشرت في : مسرحيات سارتر ، ترجمة : سهيل إدريس، منشورات دار الآداب ، بيروت ، (د . ت) .
١٨- شوبنهاور : فن الأدب (مختارات من شوبنهاور) ، أعدها بالإنجليزية : بيلي سوندرز ، ترجمة وتعليق : شفيق مقار، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢.
١٩- شيمبوراسكا . فيسوافا : البداية والنهاية وقصائد أخري، ترجمة : هاتف الجنابي، دار المدي للثقافة والنشر، سوريا، ١٩٩٨ .
٢٠- نيتشه .ف : أصل الأخلاق وفصلها ، ترجمة : حسن قبيسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، (د . ت) .
٢١- ـــــ : أفول الأصنام ، ترجمة : موسي وهبة ، مطبعة الفارابي ، (د.م) ، ط٢، (د.ت) .
٢٢- ورنوك . ميري : الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ترجمة : فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ٢٠٠٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جـ - المصادر الأجنبية :

1- Aristotle : On Memory and Reminiscence , Edited with An Introduction by : Mckeon.(R) , Random House , NewYork , 1941 .

2- Hesiod : Theology and Works and Days , Translated by : Nelson.(S) and GladWell.(R) , Focus Publishing / R. Pullins Company , U.S.A , 2009 .

3- Sarter.J.P : No Exit : Translated into English by : Powles.P , Edited by : Rubin.D, Publications and Literary Associate , U.S.A, 2011 .

ثانياً / المراجع العربية، والأجنبية، والمُترجمة :

أ - المراجع العربية :

١- أبيقور الرسائل والحكم ، دراسة وترجمة : جلال الدين سعيد ، الدار العربية للكتاب، (د.م)، (د.ت) .

٢- حربي عباس عطيتو : اتجاهات التفكير الفلسفي عند اليونان (العصر الهللينستي) ، مطبعة البحيرة ، البحيرة، ٢٠٠٧ .

٣- ـــــــ : ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ .

٤- زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٠.

٥- صفاء عبد السلام جعفر : الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ .

٦- عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، البيروت ، ١٩٨٠ .

٧- عبد الغفار مكاوي : نداء الحقيقة (مع ثلاثة نصوص عن الحقيقة لهيدجر) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، .

٨- عبد الوهاب جعفر : مبادئ الفلسفة وقضاياها المعاصرة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، ٢٠١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩- مجاهد عبد المنعم مجاهد : سارتر بين الفلسفة والأدب ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).
١٠- محمد شبل الكومي : الوجود والحرية بين الفلسفة والأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠٩.
١١- محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، الجزء الثاني (أرسطو والمدارس المتأخرة) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٧٢ .
١٢- ـــــــــ : تاريخ الفكر الفلسفي ، ج١ ، (الفلسفة اليونانية من طاليس إلي أفلاطون) ، دار الجامعات المصرية ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٣ .
١٣- يحيي هويدي : نحو الواقع (مقالات فلسفية) ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة، ١٩٨٦ .

ب - المراجع الأجنبية :

1- Chatterjee.(S), Datta.(D) : An Introduction to Indian Philosophy , Calcutta University Press , Calcutta , 1948 .
2- Dasji.(S.S.P) , Indian Philosophy , Shree Narnarayan Dev Printing Press , India , 2010 .
3- Demos.R : The Philosophy of Plato , Charles Scribner's Sons , NewYork , 1939.
4- Hankinson.(R.J) : Cause and Explanation in Ancient Greek Thought, University of Texas , U.S.A , 1986 .
5- Taylor.(A.E) : Epicurus , Dodge Publishing Co. , New York , 1910 .

جـ - المراجع الاجنبية المترجمة :

١- بوتي. لورون : الذاكرة أسرارها وآلياتها ، ترجمة : عز الدين الخطابي ، دار كلمة، أبو ظبي ، ٢٠١٢ .
٢- تاتاركيفيتش . فوادسواف : الفلسفة اليونانية ، كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٢ .
٣- سوفاج . ميشلين : برمنيدس ، ترجمة : بشارة صارجي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤- شتروفه : فلسفة العلو ، ترجمة : عبد الغفار مكاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢ .
٥- لافين . ت . ز : من سقراط إلي سارتر ، ترجمة : أشرف محمد الكيلاني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة، ٢٠١٢ .
٦- هيكت . جينفر مايكل : تاريخ الشك ، ترجمة : عماد شيحة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٤ .

ثالثاً / المقالات الأجنبية :

1- Gallowy.(A): Collective Remembering and the Importance of Forgetting: A Critical Design Challenge (Paper) , Dept. of Sociology and Anthropology Carleton University, Canada, (Without Date) .
2- Hegel.G.W.F : The Philosophy of Plato , The Journal of Speculative Philosophy, Vol. 4, No. 3, Published by : Penn State University Press , 1870 .
3- Heinaman .R : Plato : metaphysics and epistemology , Published in : Routledge History of Philosophy , V.1 (From the Beginning to Plato) , Edited by : Taylor.C.C , Routledge , London and NewYork , 2005 .
4- Hoerl.(Ch) : Episodic Memory, Autobiographical Memory, Narrative: On Three Key Notions in Current Approaches to Memory Development (Article) , published in Philosophical Psychology 20 , 2007 .
5- Marder.(M) : History, Memory, and Forgetting in Nietzsche and Derrida (Paper), University of the Basque Country, Spain, 2004.
6- Scheiter.M Krisanna : Images, Appearances, and Phantasia in Aristotle (Paper), Department of Philosophy, University of Pennsylvania, 2012 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

7- Sussman.D : Is Agent-Regret Rational ? (Paper) , Department of Philosophy , University of Illinois , 2014 .
8- Zakia.Evan : General Pattern of Aristotle's Method of Remembering and Memorization as it is Outlined in De Memoria Et Reminiscentia (Paper) , The University of North Carolina , 2012 .

رابعاً / الرسائل العلمية الأجنبية :

1- Roberto.M : Aristotle's On Memory and Recollection: Concepts, Sources, and Innovations of Aristotle's Account of Mnemonic Capacities and Activities , A thesis submitted to the Department of Classics and Ancient History Durham University , 2009 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com